تاريخ عمال الزراعة والتراحيل

في مصر والعالم
منذ عهد السخرة
حتى سنة ١٩٦٩

الفصل السادس

المستقبل

◆◆◆

obeikan.com

obeikan.com

واقع معقد وصعب ..

من الواضح أن الحياة الجديدة لم تُيسر لعمال الزراعة والتراحيل ظروفاً أفضل وعلاقات اجتماعية مناسبة، ومتقدمة تتوافق مع بداية مرحلة التحول الاشتراكى الناصري فى بلادنا، لأن التجارب التى تمت بشأنهم بدأت من منطلقات غير صحيحة.. ومن ثم فكانت تجارب إصلاحية وغير ثورية، وإن مثل هذه التجارب تكون عادةً مشوشة الغاية والهدف وتتصف بالهرولة واللملمة وعدم الانضباط الصارم.. وحتى لو أن النقابة العامة للعمال الزراعيين هى التى باشرت تنفيذها كليةً لما استطاعت أيضاً أن تتصدى وحدها للقضاء على ظاهرة عمال التراحيل، باعتبار أن القضاء على هذه الظاهرة وتصفيتها يمثل معركة هامة من معارك ثورة الريف التى لا تحسم بغير نضال سياسى وثورى لا يمكن للنقابة مهما كانت ثورية أن تقوده وتتحمل أعباءه وغاياته، لأن النقابية فى عمومها تتسم تارةً بضيق الأفق وقصر النظر الشديد بحيث تبهر جداً لأى كسب مادى ضئيل، وتارةً أخرى بالحماس العنيف فتندفع بكل قواها نحو المغامرة فتخسر كل شئ، ربما من أجل لا شئ، وعليه فإن النقابية عندما تسمح لها الظروف وحدها بقيادة النضال العمالى العام قيادة خالصة، فإنها إما تكون اقتصادية متزمتة، أو فوضوية متهورة، بمعنى أنها إما أن تربط نضال العمال العام ربطاً وثيقاً ومحكماً بالمطالب الاقتصادية الصرفة، وإما أن تدفع هذا النضال إلى مداه بدون مراعاة للظروف الموضوعية المناسبة التى تكفل حماية هذا النضال وسلامته من أجل تحقيق هدفه، ومن هنا فالنقابية غير مؤهلة

أساساً لوظيفة القيادة السياسية المخصصة فقط للحزب السياسى ذى النظرية الثورية، هذا مع العلم أن النقابية فى بلادنا الآن ليست اقتصادية، وليست فوضوية، ولا حتى وسطاً بين هذه وتلك، حيث قد تخلت والحمد لله عن ثوريتها المعروفة بفضل التغييرات الاجتماعية الكبيرة فى حياة الشخصيات النقابية التى انفصلت فكرياً وطبقياً عن جماهير العمال والتى مازالت تتربع فوق قمم النقابية المصرية باعتبارها نقابات سلطوية..

وقد ترتب على هذا تلاشى الديمقراطية النقابية، مما حال بين قيام الوحدة الحقيقية وغير الدفترية والمظهرية للطبقة العاملة المصرية فى الصناعة والزراعة على السواء، يشهد على ذلك ركود العضوية النقابية التى أصبحت وللأسف هزيلة وعجفاء فى النقابات الصناعية بشكل عام وفى النقابات الزراعية بشكل خاص، وهذا يجعلنا نقول، إذا كانت النقابية المصرية لم تعد تملك القدرة على كسب ثقة جماهيرها من العمال، فكيف تملك القدرة على قيادتهم عبر معركة التغيير فى الريف الذى يسوده واقع معقد وصعب.. حيث الغربة الاجتماعية والأمية والخرافة مازالت متفشية فى وسط عمال الزراعة والتراحيل وتعيش فى ضمائرهم.. وحيث الفقر المدقع مازال أيضاً يغطى حياتهم بسبب البطالة التى تتزايد فى الريف لزيادة المشتغلين بالزراعة والتراحيل الذين كانوا يمثلون فى عام ٦٢/ ٦٣ نسبة ٥٣٪ من مجموع العاملين فى كل القطاعات، وفى عام ٦٩/ ٧٠ سوف تكون ٥٠٪، وتوجد بعض تقديرات أخرى تقول أن هذه النسبة ستكون فى عام ١٩٦٩ قرابة ٨٩, ٥١٪ من إجمالى قوة العمل فى بلادنا.. وهذا لا يعنى نقص عدد عمال الزراعة والتراحيل بل زيادة عددهم لأن عدد العمال فى الصناعة والتجارة والخدمات سيزيد فى عام ٦٩/ ٧٠ من سبعة ملايين إلى تسعة ملايين. وهذا يجعل البطالة تنتشر أكثر فأكثر فى

الريف المصرى يؤكد ذلك ما جاء فى دراسة لشعبة تخطيط القوى العاملة.. ففى عام ١٩٧٠ سيصبح لدينا ٤٠٠ ألف عامل زراعى يمثلون البطالة المتوقع وجودها سنوياً فى قطاع الزراعة، وذلك بخلاف وجود ٣ مليون من عمال التراحيل على حد قول الدراسة المذكورة..

وبجانب هذا فالاقتصاد الرأسمالى السائد فى الريف قد زاد هذا الواقع الصعب تعقيداً بما أوجده من أمور سلبية تعوق أى تحول اشتراكى فى الريف، ويتضح ذلك فى الآتى:

أولاً.. السيطرة شبه المطلقة للرأسمالية الريفية على الحياة السياسية فى كل نواحى الريف.. حيث يتحكم أعيانه وذواته وعائلاته وعناصره الغنية فى كل المنظمات السياسية والتعاونية والإدارية الموجودة فى العزب والقرى والكفور.. ولا شك أن هذه السيطرة قد حققت منطقها الطبيعى فى تزايد سطوة الرأسمالية الريفية التى حالت نتيجة لذلك دون أى نمو للوجود السياسى لا لعمال الزراعة والتراحيل فقط بل للفقراء من الفلاحين أيضاً مما جعل القوى الأساسية لثورة الريف مازالت مسجونة فى غربتها وعزلتها..

ثانياً.. التبديد المتواصل لجزء غير قليل من الثروة القومية بواسطة العمليات المستمرة والمتكررة لبيع الأراضى الزراعية وشرائها، وفى أرباح هذه العمليات التجارية وما يترتب على ذلك من مصاريف السمسرة وتسجيل وتوثيق الأرض المباعة.. حيث بلغ ثمن الفدان الواحد قرابة عشرة آلاف جنيه.. ولذا فإن المجال الزراعى المحدود والثابت تقريباً يمتص قدراً هائلاً من الثروة القومية يذهب أغلبها إلى جيوب رأسمالية الريف بدلاً من تنمية الزراعة وتطويرها وبالتالى تحسين أحوال عمالها، وهكذا يضمن الاقتصاد الرأسمالى فى الريف تغذية طفيلية دائمة يدفعها

المجتمع من جهده وعرقه..

ثالثاً.. من جراء هذا الوضع الشاذ أصبح الريف المصرى بؤرة تفيض بحاجة الطامعين فى التملك ، ومشتهى التطلعات الطبقية من عناصر الطبقات الجديدة التى تمارس تجارة السوق السوداء ، والكسب غير المشروع فى الدولة والمجتمع ولهذا يموج الريف بالنشاط الرأسمالى الذى ساعد على تفشى الفكر الرأسمالى فى صفوف الفلاحين عموماً حتى بين ممثليهم الذين اشتغلوا بالسياسة حديثا، ومع هذا فقد بدت عليهم أمارات الأبهة والفخفخة والنعمة، حيث يلبسون الآن الجلاليب الصوف المعتبرة، والطواقى الوبر الغالية التى يصل ثمنها إلى خمسة جنيهات ويركبون فى غدوهم ورواحهم السيارات المخصوصة، ويعيشون فى قراهم عيشة مترفهة إلى درجة أن بعضهم يقتنى البوتاجاز والثلاجات والتليفزيون.. فى حين أن جمهرة الفلاحين والعمال الزراعيين يفترسهم مرض البلاجرا من الجوع ونقص الغذاء..

رابعاً.. التدهور الشديد لنصيب الزراعة فى الدخل القومى بسبب تفتيت ملكية الأرض وعدم العناية بها بينما يتزايد نصيب الصناعة. ففى سنة ٥٩/ ٦٠ كان نصيب الدخل القومى من الزراعة ٤٠٠ مليون جنيه أى بنسبة ٢ , ٣١٪ من الدخل القومى ومن الصناعة والكهرباء ٢٧٣ مليون جنيه أى بنسبة ٤ , ٢٥٪ من الدخل القومى وفى سنة ٦٤/ ٦٥ تقدمت الصناعة والكهرباء على الزراعة فيما تقدمه من الدخل القومى فقدمت الزراعة ٥١٥ مليون جنيه أى بنسبة ٥ , ٢٨٪ فى حين قدمت الصناعة والكهرباء ٥٤٠ مليون جنيه أى بنسبة ٩ , ٣٢٪ وفى سنة ٦٩/ ٧٠ ستقدم الزراعة ٦٢٧ مليون جنيه أى بنسبة ٥ , ٢٤٪ فى حين ستقدم الصناعة والكهرباء ٨٠٢ مليون جنيه أى بنسبة ٢ , ٣٤٪ من الدخل القومى.. وذلك كله بالرغم من مشروعات التنمية الزراعية واستصلاح الأراضى الواسعة التى بلغت استثمارتها

٨١٤ مليون جنيه..

خامساً.. وكذلك تدهور ما يضيفه عامل الزراعة والتراحيل إلى الثروة القومية. وذلك بعكس التحسن المستمر فيما يقدمه العامل الصناعى.. وإذا رجعنا إلى ما يضيفه العامل فى الزراعة وملحقاتها نجد أنه قد انخفض من ١٢٥ جنيهاً فى سنة ٥٩/ ٦٠ إلى ١١٧ جنيهاً فى سنة ٦٢/ ٦٣.. وهذا يعنى تدهور الانتاج والانتاجية فى الزراعة فى ظل الرأسمالية الريفية التى تملك وتتحكم فى أربعة أخماس الأرض الزراعية فى مصر..

سادساً.. هجرة العمالة الزراعية أخيراً للمدينة والبلاد العربية..

obeikan.com

الثورة والواقع الصعب ..

ولا شك فى أن هذا الواقع يبدو معقداً جداً وصعباً جداً.. وبالتالى تستبد بنا الدهشة وتستولى علينا الحيرة حياله، مما يجعلنا نردد عبارة.. مافيش فايدة.. تعبيراً عن تشاؤمنا تجاه مستقبل الريف المصرى وثورته، وهذا شئ طبيعى إذا نظرنا إلى هذا الواقع بالعين المجردة، أما إذا نظرنا إليهَ بعين الثورة فإنه يبدو كعملاق قدميه من طين على حد تعبير ماوتسى تونج، لأن عين الثورة يمكنها أن ترى بوضوح أن هذا الواقع ليس إلا خرافة مهولة لفقدانه جذوره الضاربة فى الأرض بفضل معاداته الأصيلة لمصالح كادحى الريف، ومن هنا تنشأ ضرورة تغييره بالثورة.. وعليه فالثورة المصرية مطالبة فوراً بهزيمة الواقع الريفى من خلال تعديل جغرافية الثورة فى مصر بنقل مركزها إلى الريف على أن يسبق ذلك ترسيخ مقدمتها فى أرجائه ممثلة فى الديمقراطية الشعبية كسلطة للعمال والفلاحين من أجل تنشيط الصراع الطبقى فى أعمق أعماقه، باعتبار أن هذا الصراع هو الطريق الوحيد والمدخل الرئيسى لثورة الريف التى هى أيضاً ذروته وأقصى حدته..

وهكذا يتواجد المناخ الديمقراطى المناسب لجذب أبسط الجماهير الكادحة والأجيرة فى الريف من غربتها السحيقة للمشاركة فى النضال الثورى الريفى، حيث تحقق ذاتها وتستعيد تكوين نفسيتها المبددة ومزاجها الممزق من جراء الغربة والشتات، وبالتالى تدرك حسياً أنها طبقة اجتماعية منتجة كما تدرك أيضاً أنها ضمن القوة الرئيسية والمحركة للثورة المصرية عموماً، وذلك بفضل الديمقراطية الشعبية

التى تجعلهم السلطة العليا فى الريف بعد أن تتوارى سلطة المأمور وضابط النقطة والمخبر والعمدة وشيخ الخفر، بحيث لا تظهر سلطة القمع هذه حتى بعد تجديدها وتطويرها إلا بقدر تدعيم سلطة الديمقراطية الشعبية..

والخطأ الذى صاحب تطور الثورة المصرية هو إغفال توفير هذا المناخ الديمقراطى الشعبى فى الريف.. حيث قد تم تصفية الإقطاع المصرى أساساً بواسطة سلطة الدولة بدلاً من تصفيته بسلطة الديمقراطية الشعبية أى بسلطة الجماهير الريفية الكادحة والأجيرة.. وقد نشأ هذا الخطأ من جراء التقييم غير الموضوعى لقوة الإقطاع ورأس المال، كما جاء فى البحث المقدم من كمال الدين رفعت إلى ندوة الاشتراكيين العرب بالجزائر عام ١٩٦٧ حيث جاء فى البحث.. ومع ذلك فما زالت هناك بقايا ذات نفوذ للاستغلال الإقطاعى والرأسمالى، فبعض قطاعات الرأسمالية المحلية تلقى الدعم والمساندة من الرأسمالية العالمية، كما أن القيم والعادات الرأسمالية مغروسة فى أجيال لا حصر لها.. ولهذا تبدو بقايا الاستغلال الإقطاعى والرأسمالى أقوى من الشعب العامل.. والحقيقة أن هذا لا يعنى غير تضخيم قوة الإقطاع ورأس المال، والتقليل من قوة الشعب عماله وفلاحيه ومثقفيه، والثقة كل الثقة فى قوة سلطة أجهزة الدولة، علماً بأن هذه الأجهزة وخاصةً قيادتها وقممها متخمة بالشخصيات التى تنتسب فكرياً وطبقياً إلى تحالف الإقطاع ورأس المال.. أى من العائلات والطبقات الغنية..

ولهذا فقد وقفت الجماهير الريفية الكادحة وقفة المشاهد والمتفرج فقط خلال معارك تصفية الإقطاع عموماً .. بحيث لم تشارك إلا بعواطفها، حيث قامت سلطة الدولة وحدها تقريباً بهذه المهمة الثورية. وبذلك فات على الجماهير الريفية الكادحة والأجيرة فرصة نادرة للتدريب السياسى الثورى فى معارك تصفية الإقطاع التى

كانت خير مدرسة نضالية لهذه الجماهير، بحيث كانت تفوق عشرات المعاهد النظرية الحالية لقربها من حرارة النضال وناره المستعرة.. كما ضاع على هذه الجماهير فرصة تشرب الجرأة النضالية خلال ضرب الإقطاع وضرب تقاليده ومظاهره المتخلفة التى مازال بعضها موجوداً بشكل صارخ كالريع النقدى والعينى..

ومن ثم فلم تبارح هذه الجماهير غربتها وعزلتها، حيث ظل الخوف قابعاً فى وجدانهم إلى حد أن أجيراً ريفياً قد علق على خبر اعتقال شخصية إقطاعية فى قريته بقوله.. أنت تقدر تخطى الحنش وهو ميت.. وهذا تعبير واضح وبسيط على استمرار خوفه من الحنش الإقطاعى حتى بعد موته. وذلك نتيجة طبيعية لأن الثورة المصرية لم ترسخ مقدمتها فى الريف بقصد هزيمة الواقع المتخلف فيه، إما خوفاً من التهاب الصراع الطبقى فتندفع جماهير عمال الزراعة والتراحيل ومعهم حلفاؤهم فقراء الريف لحل التناقضات المستعصية التى ولدها الاستغلال الإقطاعى الرأسمالى فى الريف وقراه مستعينين بسلطة الديمقراطية الشعبية، وإما خوفاً من قوة الإقطاع ورأس المال.. حسب التقييم السابق.. التى يمكنها أن تطيح لا بقوة الجماهير الريفية الكادحة بل بالثورة المصرية عموماً..

قوة الجماهير الكامنة..

لكن النظرة السابقة التى لم تثق فى قوة الجماهير الكادحة ليست صائبة، حيث أثبتت أحداث هزيمتنا العسكرية يومى ٩ و١٠ يونيو سنة ١٩٦٧، مدى قوة هذه الجماهير ومدى أصالتها فى مواجهة قوى الثورة المضادة فى الداخل والخارج على السواء، فقد خرجت جماهير العمال والفلاحين والمثقفين هادرة فى شوارع القاهرة والمدن الكبرى فى يومى ٩ و١٠ يونيو تطالب بإصرار ببقاء المناضل عبد الناصر قائداً ورئيساً، وذلك تعبيراً على الصمود ومواصلة النضال الشاق استعداداً لمواجهة

عسكرية أخرى تقضى على كل آثار العدوان الصهيونى الإمبريالى ممثلاً في أمريكا وإنجلترا وإسرائيل على الوطن العربى.. ومن ثم فقد كان هذا العمل الشعبى الذى تفجرت من خلاله الثورية الكامنة والاشتراكية الكامنة بين الجماهير الكادحة لا يعنى موقفاً شعبياً خالداً بقدر ما يعنى أن قوة الجماهير هذه إذا ما توحدت تفوق كل قوة بما فى ذلك قوة الإمبريالية العالمية، وذلك من حيث القدرة والذكاء معاً، يشهد على ذلك المعانى التى قد تضمنها موقف الجماهير فى هذا العمل الشعبى والتى تبدو فى الآتى..

١. السرعة الخيالية جداً التى فاقت أية سرعة مهما كانت خرافية كسرعة البساط السحرى أو نهائية كسرعة الضوء فى تجميع وحشد قوة العمال والفلاحين والمثقفين فى يومى ٩ و١٠ يونيو بفضل حساسية الجماهير وحدها التى عرفت بذكائها أن السرعة عامل حاسم جداً لإنجاز هذا العمل الثورى حتى لا تنهض القوى المعادية والبيروقراطية فى جهاز الدولة لتعطيله بحجة انتظار الأوامر.. كما تم فعلا..

٢. وبجانب السرعة الفائقة فقد بدت القوى الشعبية ضخمة وعملاقة لإدراك الجماهير أيضاً أن العمل الشعبى فى هذا اليوم لابد أن يكون بهذا الحجم حتى لا تستطيع أية قوة خائنة أو عميلة أو بيروقراطية من التعرض له أو مواجهته..

٣. رغم العفوية والتلقائية فى هذا العمل الشعبى فقد كانت الجماهير يسودها إحساس واحد ومشترك حيث كانت مشاعرها واحدة لدرجة أن العبارات والهتافات والمناقشات كانت صورة مكررة وطبق الأصل..

٤. وكان تجميع الجماهير الشعبية على هذا النحو، بغير قادة وبغير دعاة ومبشرين، وبدون أى مجهود من الاتحاد الاشتراكى، يمثل قوة الترابط بين الجماهير

الفقيرة الكادحة من خلال ضميرها الاجتماعى الذى جمعها فى هذا العمل الشعبى، هذا الضمير الذى نبت على الأرضية الطبقية الواحدة أو المجاورة لهذه الجماهير التى قامت لتدافع عن الثورة الاشتراكية الناصرية..

٥. وأن الترابط المذكور يوضح أن جماهير يومى ٩ و١٠ يونيو تتمتع بأساس واحد أو متقارب، ومن ثم فالفئات الاجتماعية الغريبة عن العمال والفلاحين والمثقفين لم تتشرف بالمشاركة عملياً ولا حتى فكرياً فى هذا العمل الشعبى لحماية الاشتراكية الناصرية كوطن..

ولذلك كله فقد كان هذا العمل الشعبى الرائع يومى ٩ و١٠ يونيو يمثل تجربة جديدة وخلاقة فى ممارسة الديمقراطية الشعبية كوسيلة كفاحية صاغها شعبنا المصرى الكادح والفقير للوصول بها عاجلاً إلى الحفاظ على غاية اجتماعية هى الاشتراكية الناصرية وهذه التجربة الجديدة قد هيأت لنفسها مناخاً حراً وصافياً من أى غبار للتسلط الإدارى والبيروقراطى والبوليسى. وعليه فكانت تجربة ديقراطية نفاذة، حيث وصل شعاعها حتى أعمق أعماق الدولة والمجتمع كاشفاً كل أبعاده الإيجابية والسلبية على السواء، حتى أصبح هذا العمق كتاباً مفتوحاً أمام عيون الجماهير..

ومن ثم فقد توسعت إمكانية الحقوقية للجماهير الشعبية بمقتضى هذه الديمقراطية توسعاً فاق كل الإمكانيات التى تحققت من حصول العمال والفلاحين على نصف المقاعد فى مجلس الأمة وهيئات الحكم المحلى ومجالس إدارة الشركات. وبفضل هذه الإمكانية الحقوقية التى أوجدتها هذه التجربة الديمقراطية استطاعت الجماهير الفقيرة والكادحة إبقاء المناضل عبد الناصر قائداً ورئيساً وإعطائه الحق كل الحق فى إعادة البناء العسكرى والسياسى فى بلادنا من أجل حماية مصر الثورة

والتحرر والاشتراكية، وذلك عن طريق إشاعة الديمقراطية الشعبية وتأكيدها..

ونخلص من هذا العرض الطويل إلى أن الجماهير المصرية الكادحة والفقيرة عندما اكتسبت هى بكفاحها وحدها سلاح الديمقراطية الشعبية لم تتصد فقط لقوى الثورة المضادة التى يقودها تحالف الإقطاع ورأس المال فى الداخل بل تصدت وحدها بجدارة للعدو الصهيونى الإمبريالى المدعم بالأسطول السادس الأمريكى، فى وقت حرج للغاية حيث القوى الرجعية والعميلة فى الداخل تتربص لثورتنا واستقلالنا، وحيث سلطة الدولة رغم انتفاخها قد أصابها الشلل والعجز بسبب الهزيمة العسكرية المفاجئة..

وهذا خير دليل على المدى المتعاظم لقوة الجماهير الكفيلة وحدها بهزيمة الواقع الصعب فى الريف المصرى بواسطة سلطة الديمقراطية الشعبية التى سوف توفر لعمال الزراعة والتراحيل وكل كادحى الريف حصانات أكيدة ضد التسلط الإدارى والبيروقراطى فى الريف، والتى سوف تعطيهم إمكانيات حقوقية كبيرة تجاه المستغلين وأشباه المستغلين فى الريف. وبهذا يتواجد مناخ طبيعى فى كل الحياة الريفية، حيث يندفع فى رحابه عمال الزراعة والتراحيل للبحث عن مستقبلهم فى مصر الجديدة بالأظافر والسواعد التى حفرت قناة السويس ومئات الترع والرياحات وعند ذلك فقط تتوالى التغييرات الفكرية والاجتماعية التى سوف تقضى رويداً رويداً على ظاهرة عمال التراحيل..

ثورة الوعى..

المعروف أن السماء لا تُمطر ذهباً ولا فضة.. وعليه فمستقبل عمال الزراعة والتراحيل وكل كادحى الريف لم ينزل عليهم من السماء ولن يأتى بغير كفاحهم من خلال ثورة الوعى فى صفوفهم.. هذه الثورة التي تعتبر أقوى ثورة في صفوف

الشعوب الكادحة وذلك باعتبارها أبرز أمارة من أمارات الديمقراطية الشعبية فى الريف، حيث تعى الجماهير الفقيرة والكادحة فيه مدى الاستغلال الإقطاعى والرأسمالى الواقع على كاهلها ببشاعة حتى الآن فتتمرد عليه وترفضه وتبدأ فى مقاومته..

ومن ثم يتفجر الصراع الطبقى ويحتدم فى الريف بواسطة ثورة الوعى، بدلاً من تفجير الثورة الروحية هذه بواسطة الصراع الطبقى.. وذلك راجع بالدرجة الأولى إلى طبيعة الثورة المصرية التى أحدثت تغييرات اقتصادية تقدمية فى المجتمع المصرى دون أن يواكبها تغييرات مماثلة فى حياة الناس الروحية نتيجة لأن هذه التغييرات قد تمت بطريقة حكومية صرفة.. مما أدى إلى وقوع تصرفات غير ديمقراطية بل ومعادية للجماهير فى سياق حدوث التغييرات الاقتصادية الثورية مثلما حدث فور تنفيذ قانون الإصلاح الزراعى الأول بقرية سمبو بالدقهلية، عندما ثار فلاحوها الفقراء ضد حالات تهريب الأراضى التى كانت تملكها عائلة فوده الإقطاعية بالبيع إلى أغنياء الريف دون فقرائه، فتدخل البوليس بشكل وحشى فاعتقل عشرات الفلاحين وقتل فلاحاً وأصاب آخرين مجاملةً للسادة المشترين من أمثال.. المرشدى.. تاجر المخدرات الكبير فى هذه الناحية، ومجاملةً أيضاً لعائلة فوده التى تصاهر رئيس الوزراء وقتئذٍ علي ماهر باشا.. وكان هذا كله منتظر الحدوث من قبل الأجهزة الحكومية التى ورثتها ثورة ٢٣ يوليو من العهد الملكى دون هدمها وبنائها من جديد طبقاً لمواصفاتها، ومع هذا كلفتها بمهام جديدة وثورية فى الإصلاح الزراعى، وفى القطاع العام والحكم المحلى، وفى مؤسسات الرقابة الكثيرة العدد رغم أنها مهام سياسية بالدرجة الأولى. وقد تسبب ذلك فى تضخمها كماً وكيفاً من حيث التزايد الجنونى فى عدد الموظفين المكتبيين والإداريين، ومن حيث تزايد

السلطة شبه الإلهية لهذه الأجهزة التى تتمركز فى سلطة الرجل الفرد كالمحافظ والمدير العام، ورئيس الهيئة والشركة..

وبفضل هذا لم تتغير حياة الجماهير الروحية ولم تحدث ثورة فى وعيها، حيث بقيت العلاقات والقوانين والأعراف القديمة المتخلفة كشامات قبيحة فى وجه المجتمع الجديد، وأبلغ دليل على ذلك هو استمرار وجود الحصانات البيروقراطية فى أجهزة الدولة المختلفة، هذه الحصانات التى تعتبر غطاءً[1] قانونياً لحماية الموظف الكبير بالذات بحيث لا يستطيع أى أجير زراعى أو فلاح كادح أن يوجه إليه النقد أو حتى يناقشه بصراحة أثناء تأدية عمله، دون أن يتهم هذا المواطن المسكين بالاعتداء على موظف عمومى، وهذه التهمة موجبة للحبس والغرامة وفقاً للقانون الذى يؤكد حصانات أخرى خفية وضارة تحت شعار الصالح العام، ونتيجة لهذا تتمكن العناصر البيروقراطية في حماية هذه الحصانات من ممارسة عدوانيتها بإضاعة حقوق الناس دون خوف من مساءلة أو حساب، وبسبب ذلك تنتشر الفلسفة الاستسلامية بين الجماهير، علماً بأن كل هذه الحصانات الظاهرة والمستترة من مخلفات الماضى وأمارة من أمارات ظلم الإنسان لأخيه الإنسان بواسطة الدولة القديمة أو المتخلفة سواء كانت دولة عبودية أو إقطاعية أو رأسمالية..

وقد باشرت الدولة القديمة والدولة الحديثة فى كثير من الأحيان أعمال الظلم المنظم والمقنن معاً عن طريق تحصين السلطة العامة حتى تنتزع المهابة وتكتسب احترام العادة، ولذا كانت ومازالت تضع القوانين الخاصة بشأن قداسة وحصانة الموظفين الذين كانوا ومازالوا يمثلون وضعاً ممتازاً باعتبارهم هيئات السلطة العامة التى يجب أن تتعامل مع المواطنين من خلال الخوف والاحترام معا..

(١) دراسة حول سلطة الديمقراطية الاشتراكية لعطية الصيرفى نشرت بمجلة الكاتب عدد فبراير سنة ١٩٦٨.

ونتيجة لهذا فالشئ الطبيعى أن تُصبح الدولة فى مصر فى عهد ملوك أسرة محمد على من طراز الدولة القديمة أو المتخلفة.. ولكن الشئ غير الطبيعى أن تصبح الحصانات البيروقراطية موجودة فى دولة تحالف العمال والفلاحين والمثقفين التى تمضى نحو الاشتراكية والتحرر والتى تحقق وجودها بثورة مجيدة، والمعروف أن الثورة هى علم تغيير المجتمع.. ولذلك فإن استمرار الحصانات البيروقراطية كحزام من الخوف حول الأجهزة الحكومية يتعارض مع طبيعة الثورة، ويجعلها أى الدولة تعيش فى برجها القديم معزولة عن الجماهير وفى وضع مقابل لها.. حيث مازالت الجماهير تنظر إليها على أنها لم تعد دولتها وآداتها لتحقيق غاياتها المتطورة والطموحة.. وبالتالى لا تنمو علاقات الود بين الشعب ودولة الشعب التى يتم التعامل معها باحترام مفرط لا يقل عن الخوف.. ولذا لا تتمتع أجهزة الدولة فى بلادنا بثقة الجماهير من بسطاء الناس لوجود عدد من المظاهر..

أولها.. احتلال غالبية المواقع القيادية فى أجهزة الدولة المختلفة بأبناء الحلف العائلى الكبير الذى يضم قرابة خمسين عائلة من عائلات البنادر والريف ذات السطوة والنفوذ منذ أكثر من قرن مثل عائلة أباظة والبدراوى والإتربى والملوم وخشبة وأبو حسين وأبو يوسف وهلال والفقى وعبد الغفار وغيرها، هذه العائلات التى تربطها علاقات القرابة والنسب والمصاهرة ينتسب اليها أغلبية كبار القضاه والضباط ورؤساء المصالح والمؤسسات والشركات ممن لا يتمتعون بأى وجدان اشتراكى مما يجعل ولاءهم بعيداً عن الشعب وثورة الشعب..

ثانيها.. مازال أدب التخاطب مع الموظفين وبالذات كبارهم مشحوناً بشكل فظ ومفرط بكلمة.. بيه.. البغيضة جداً والكريهة جداً والتى تشير إلى التفاوت الطبقى، والتى تدل على أن الموظفين الكبار لا يتعاملون مع الشعب كخدام مصالحه بل

يتعاملون معه من مركز السيادة لانتسابهم لسيادة الحلف العائلى..

ثالثها.. والحالات التى يتعرض فيها المواطنون الفقراء للتعامل مع مؤسسات الأمن أو المؤسسات الحقوقية، فإنهم يضطرون إلى اللجوء إلى المحامى لا للاستعانة به فى توضيح وجهة نظرهم التى لا يمكنهم التعبير عنها سواء كانوا متهمين أو مجنى عليهم كما هو الحال فى البلدان الاشتراكية، ولكن للعمل أساساً على توفير الثقة والطمأنينة لموكليه حتى لا تضيع حقوقهم بواسطة هذه المؤسسات التى لا يرتاحون إليها نفسياً حتى الآن..

رابعها.. تفشى النفاق الاجتماعى فى قلب المجتمع الجديد بشكل صارخ، يؤكد ذلك ما تفيض به أعمدة الصحافة اليومية من سطور النعى والتهنئة والشكر التى تكتب مجاملة وتكتب تقرباً وزلفى للسادة كبار الموظفين ولقد تفشى هذا الوباء الاجتماعى الذى أصاب حتى أكثر الشخصيات العاملة فى التنظيمات الشعبية التى أصبحت وللأسف لا يفوتها أية مناسبة تمس كبار الموظفين فى الحكومة والشركات دون أن تؤكد ولاءها وتبرر عواطفها الكاذبة من خلال نعى أو تهنئة أو شكر تنشره فى الصحافة اليومية..

وإزاء كل هذا فلابد من تفجير ثورة الوعى فى الريف بالذات باعتباره الوجه المظلم من المجتمع المصرى، حتى يمكن تنظيف هذا الوجه من كل شامات التخلف وأماراته بواسطة الديمقراطية الشعبية كسلطة لكادحى الريف وأجرائه الذين سوف يحصلون على أفكار طليعية جديدة بنقل ثورة الوعى، هذه الأفكار التى تصبح قوة مادية هائلة عندما تستحوذ على الجماهير، على حد تعبير كارل ماركس، حيث تدفع الصراع الطبقى وتلهبه تعجيلاً لتحقيق التحول الاشتراكى فى الريف المصرى، وفى الوقت نفسه تتبادل التأثير مع التغيرات الاقتصادية والاجتماعية

التقدمية فتتطور حياة الناس الروحية والمادية على السواء..

ولكن ثورة الوعى هذه ليست أمراً سهلاً لندرة الكوادر الثورية الشبيهة فى ندرتها بقطع الماس التى لا يتم الحصول عليها إلا بغربلة منجم هائل أو حقل كبير من الفحم للحصول على قطعة صغيرة من الماس أي الديمقراطية.. والسبب فى ذلك يعود إلى ظروف بناء التنظيم السياسى فى مصر بعد ثورة ٢٣ يوليو حيث تم بناء التنظيم فى رحاب سلطة الدولة وفى كنفها مما جعل السعى لعضويته أمراً مرغوباً فيه للجميع توفيراً للطمأنينة وضماناً للحصول على الرغبات والتطلعات، ومن ثم فقد تسابق إليها الآلاف من المواطنين فى مقدمتها كل الأغنياء والشباعى فى الريف والمدينة الذين هرولوا للاستحواذ على قمم التنظيم متلففين بالشعارات الضبابية التى تضفى على نشاطهم الشرعية السياسية كشعارات.. كلنا هيئة التحرير.. ثم.. كلنا اشتراكيين.. ثم.. كلنا عمال.. وذلك بقصد احتواء الثورة المصرية وابتلاعها كعملية تقويض ذكية لما فقدوه من مراكز فى الأحزاب الرجعية القديمة.. وقد أدى ذلك لعضوية هذا التنظيم إلى تحويلها إلى وعاء تنظيمى فضفاض يضم العامل وصاحب العمل ويضم الاشتراكى وغير الاشتراكى مما ميزه بالتناقضات الصاخبة بين المصالح المختلفة وبين الأفكار المختلفة التى لا يمكن أن تتعايش فى جسم تنظيمى واحد دون أن توقف نموه وتطوره وتحبس طاقاته من النشاط والحركة. وقد عبر ذلك عن نفسه فى الضآلة الكفاحية والثورية التى تعانيها عضوية التنظيم السياسى لعدم تغطيتها جيداً بفكر الطبقات الأجيرة والكادحة، وخاصةً أنه لا يوجد عمل ثورى بدون نظرية ثورية.. ولهذا لم يقدم التنظيم السياسى للثورة المصرية بالقدر الكافى مناضلين جادين واشتراكيين ثوريين ملتزمين، فى حين أن التنظيمات الشيوعية السابقة مثلاً التى لم تحظ بالشرعية دقيقة

واحدة قد قدمت للثورة المصرية كوادر ثورية عديدة تبددت وضاعت الآن بفعل القيود والخمول والصعلكة..

وربما تبدو ندرة الكادر الثورى غير منطقية من حيث أن مهمته بالريف المصرى خالية من المخاطرة إلى حد بعيد. هذه المخاطرة التى تلازم أى عمل نضالى وثورى على الدوام، حيث يكافح هذا الكادر المصرى مع الجماهير الريفية الأجيرة والكادحة وظهره مسنود على سلطة الدولة ولقمة العيش مضمونة له ولأسرته فلن يدفعه الجوع إلى ما هو ميت ورميم، ولن ينام فى الأدغال والكهوف مضاجعاً الأفاعى والوحوش، ولن تهدده فى كل لحظة رصاصات العدو الاستعمارى أو الطبقى، ولن يزحف على بطنه مسافات طويلة وفوق ظهره أحمالاً تنوء بحملها الدواب، كما هو حال أخوته ثوار الريف والجبل فى فيتنام وفلسطين وأمريكا اللاتينية.. ولكن هذا لا يعنى أن مهمة الكادر الثورى فى الريف المصرى خالية من المخاطرة، أى أنها مهمة هينة لا تزيد عن كونها مجرد نزهة أو جولة من جولات الوعظ والإرشاد فى القرى والكفور، حيث ثبت بالفعل أنها من أصعب المهام التى تواجهها الثورة المصرية عموماً لأنها تكلف مناضلى الريف حياتهم فى بعض الأحيان إلا إذا كان إيمانهم بالوطن والاشتراكية الناصرية يرقى إلى مسألة الإيمان الديني، وذلك كما حدث في قرية كمشيش منوفية فى عام ١٩٦٦ التى أثبتت أن الإقطاع المصرى فى قرية واحدة استطاع أن يغتال الفلاح أبو رواش، والعامل الزراعى عنتر، والمناضل الريفى صلاح حسين عضو الاتحاد الاشتراكى، وقد حدث هذا وسيحدث مرات ومرات فى ظل سلطة دولة الشعب العامل وطالما لم تتسع وتتعمق فى الريف المصرى الديمقراطية الشعبية كسلطة للعمال والفلاحين، ومع هذا فندرة الكادر الثورى لا يمكن أن تعوق تفجير ثورة الوعى إذا ما أخذت الثورة المصرية بأسلوب بث الخمائر

الثورية فى القرى والعزب والكفور رويداً رويداً حتى يتحول الريف كله ممثلاً فقط فى أجرائه وكادحيه من الفلاحين إلى خميرة ثورية ناضجة.. بمعنى أن تكلف مجموعات صغيرة من الكادر الثورى بممارسة المسئولية السياسية فى عدد قليل من القرى بهدف تجنيد وتربية كادر ثورى ريفى لقيادة ثورة الريف، بتفجير ثورة الوعى مصحوبة بتحقيق الأمور الهامة التالية:

أولاً.. لابد أن تسود قوة المثل فى كل تصرف من تصرفات الكادر الثورى باعتباره مصلحاً اجتماعياً وممثلاً للأمانة الثورية الجديدة عليه أن يقدم للجماهير فى تواضع وفى بساطة المثل الأعلى فى أعماله وتصرفاته على الدوام، فهو آخر من يأكل، وآخر من ينام، وأول من يموت، على حد وصف المناضل الثوري شى جيفارا، وذلك لأن قوة المثل هذه لها فعل السحر وتأثيره على الجماهير، حيث تؤكد لديها الأفكار وترسخها فى ضميرها الاجتماعى وتحض بها إلى مرحلة الإيمان، كما حدث فى الثورة الصينية العظيمة كثورة ريفية بالدرجة الأولى استطاعت أن تحقق انتصارات رائعة بفضل قوة المثل الحى فى التضحية والنضال التى قدمها الرئيس ماو ورفاقه من قادة الثورة الصينية، وكما حدث فى ثورة الشعب الفيتنامى التى حققت المعجزات بفضل قوة المثل أيضاً التى قدمها أعضاء الحزب الشيوعى فى فيتنام بقيادة الرفيق هوشى منه، كما أن قادة الثورة الكوبية بقيادة فيدل كاسترو كانوا نموذجاً رائعاً فى إشاعة الفكر الاشتراكى مصحوباً بقوة المثل من خلال المشاركة السنوية فى جنى محصول القصب بجدية تفوق جدية الفلاحين، وحتى المثقفين وأساتذة الجامعات الذين كلفوا بالعمل فى المزارع الاشتراكية الجديدة، فإنهم يعملون بجهد يماثل جهد إخوتهم الفلاحين ويعيشون عيشتهم الخشنة ضاربين المثل فى الجهد والتضحية..

ثانياً.. ضرورة تحسين الحياة المادية لكادحى الريف وخاصةً عمال الزراعة والتراحيل بارتفاع أجورهم وإعطائهم رويداً رويداً الحقوق التى حصل عليها إخوتهم عمال الصناعة فى المدن.. وبدون ذلك فلا قيمة لثورة الوعى لأنه إذا كان المسيح قال.. ليس بالخبز وحده يحيا الإنسان، فمن حقهم أيضاً أن يقولوا.. ليس بالفكر وحده يحيا الإنسان.. حيث يعيش الإنسان بالفكر والخبز معا..

ثالثاً.. من المهم جداً مشاركة عمال الزراعة والتراحيل على وجه التحديد مشاركة فعلية وتقريرية وليست مشاركة شرفية أو استشارية فى كل التنظيمات السياسية والشعبية والمحلية بما فى ذلك الجمعيات التعاونية والعمديات، على أن يتقاسموا نصف مقاعد الفلاحين كحد أدنى فى هذه التنظيمات باعتبار أنهم ممثلى العمل والفلاحين على اختلاف فئاتهم مثلما يوجد ممثلو رأس المال فى المجال الزراعى، وذلك لأن المشاركة على هذا النحو تمثل ضرورة لبدء ثورة الريف.. حيث تعلمنا خبرة الثورات الاشتراكية وخاصةً ثورة أكتوبر الاشتراكية العظمى فى روسيا عام ١٩١٧، أن هذه الثورة قد وضعت رئاسة السوفيتيات وقيادتها فى الريف الروسى الواسع الارجاء تحت إشراف الأجراء الزراعيين والفلاحين الفقراء والكادحين كضرورة ثورية تتجلى فى جمهرة العمل السياسى والمسئولية السياسية وسط جماهير الريف الأجيرة والكادحة لأول مرة فى التاريخ، كتعبير عن إشاعة الديمقراطية الاشتراكية الجديدة وممارستها كسلطة للعمال والفلاحين وكل الفقراء.. ومما يذكر أن ديكتاتورية البروليتاريا التي تعني أيضاً ديمقراطية البروليتاريا قد منحها قادة الثورة الروسية ومنهم الرفيق لينين هذه السلطة سلطة ديكتاتورية البروليتاريا التي هي ديمقراطية البروليتاريا ولكن بعد وفاة الرفيق لينين انتزعت ديكتاتورية البروليتاريا هذه لتسلم إلى اللجنة المركزية ولسكرتير عام الحزب الشيوعي وقتئذٍ

وهذه مصيبتها..

ومن هنا فالمشاركة المذكورة تقوم بدور المدرسة السياسية التى يتم فيها تعليم أجراء الريف وكادحيه علم السياسة وفن السياسة لأول مرة حتى يستطيع هؤلاء كيف يدبرون شئونهم بل وشئون بلادهم من أجل تنظيم المواجهة المكشوفة والمستمرة بينهم وبين كل مستغليهم من رأسماليين وأشباه إقطاعيين من خلال وحدتهم الشاملة مهنياً وإقليمياً وطبقياً، ومن خلال تطور المعرفة بينهم من معرفة حسية بسيطة إلى معرفة عقلية تمكنهم من إلحاق الهزيمة بكل مستغليهم حيث شاهد الحياة الريفية وقتئذٍ نقصاً ملموساً فى وزن الوجود الرأسمالى الذى قد أصبح الآن متضخماً بشكل يفوق الحد لا فى الحياة الريفية فقط بل فى الحياة المصرية عموماً بفعل محاولة احتواء الثورة المصرية عن طريق مزاحمة العمال والفلاحين فى نصيبهم المقرر فى مقاعد التنظيمات السياسية ، والمحلية ، والشعبية، حيث تدعى هذه العناصر الرأسمالية انتمائها اجتماعياً للعمال والفلاحين فى ترشيحات هذه التنظيمات ليس بدافع الخوف كما يقول حسنين هيكل بل بدافع محاولة ابتلاع الثورة كما حدث فى ثورة ١٩١٩..

وبهذه الكيفية الموضوعية تنجح ثورة الوعى هذه فى إخراج الملايين من أجراء الريف وكادحيه من غربتهم إلى الحياة والمجتمع محققة لهم علاقات اقتصادية وسياسية وحقوقية جديدة بحيث لم تعد فى نظرهم مؤسسات الدولة، وبالذات مؤسسات الأمن والمؤسسات الحقوقية بعبعاً مخيفاً.. وعند ذلك فقط يسترد أجراء الريف وكادحيه وكل فقرائه عافيتهم النفسية فينطلقون باحثين عن مستقبلهم فى الاشتراكية والتحرر والسلام بعد أن وصل إلى أدمغتهم فكر اشتراكى ثورى جديد.. هذا الفكر الخلاق صاغ المناضل الريفى وأمده بقوة روحية أسطورية

هزمت عبقرية التكنولوجيا والمخترعات المدمرة والعدوانية على أرض الصين وفيتنام وكوبا والجزائر.. والذى قد شد جماهير الهنود الحمر في أمريكا اللاتينية من غربتهم المظلمة دافعاً إياهم إلى حمل السلاح ضد الإمبرياليين الأمريكيين وعملائهم فى أمريكا اللاتينية.. وحتى الفكر الرجعى والعنصرى المعادى للإنسانية والتقدم يعطى للجماهير فى بعض الأحيان قوة روحية هدامة، يشهد على ذلك تواجد ظاهرة الهتلرية التى نجحت فى شحن أدمغة الجماهير الألمانية بما فى ذلك جزء هام من الطبقة العاملة الألمانية ذات التاريخ الثورى العريق، بعظمة الجنس الألمانى وحده وتفوقه على كل الأجناس التى يجب أن تباد من الوجود. ويشهد على ذلك أيضاً تواجد ظاهرة الصهيونية كهتلرية جديدة فى سماتها وتصرفاتها، حيث اكتشف مبشروها الأوائل أهمية الفكر المصحوب بقوة المثل فى اقناع الشخص اليهودى الذى يعبد طوال حياته حرفة المال والسمسرة بالذهاب إلى فلسطين ليستعمرها عنوة بطرد أهلها عرب فلسطين، وذلك عن طريق إشاعة فكرة تأليه الأرض أى أرض فلسطين، وتأليه العمل عليها، بمعنى أن أرض فلسطين هى إله الصهاينة والعمل عليها إلههم أيضاً وقد تأكدت هذه الفكرة الكاذبة بقوة المثل التى قدمها زعماء الصهاينة أمثال بن جوريون، بواسطة الحياة والإقامة فى قلب المستعمرات الزراعية بدعوى التطهر من دنس الحياة الربوية التى عاشها اليهود. ولهذا يمجدون الفلاح الصهيونى بقولهم مثلاً.. تضئ وجهه قوة المثل وهو يعمل على الأرض التى مشى عليها اسحاق وسليمان والمسيح.. هذا بالإضافة إلى أن الأدب الصهيونى قد عمق لدى الجماهير اليهودية فكرة تأليه الأرض، فى رواية.. طوبى للخائفين.. للكاتبة الصهيونية، يائيل ديان، ابنة موشى ديان، يقول الأب لابنه عندما رآه راجعاً من المعبد الذى لا يذهب إليه إلا قليلاً.. يقول الأب.. حين كنا يهوداً فى روسيا أو غيرها كان لزاماً علينا أن نطيع التعليمات ونحافظ على ديننا، أما الآن فقد أصبح

لدينا شئ أهم.. الأرض.. أنت الآن إسرائيلى ولست يهودياً.. أتعرف إذاً ماذا كان اسمى الحقيقى فى روسيا.. كان اسمى موئل هل تتصور ذلك.. نعم كان اسمى موئل.. ولكننى غيرته حين أتيت إلى هنا.. وسميت نفسى ايفرى.. لقد تركت هناك ملابسى وقناعى وأقاربى.. وعثرت هنا على رب جديد.. هذا الرب خصب الأرض وزهر البرتقال.. ألا تحس بذلك، وأخذ ايفرى حفنة من تراب الأرض وسكبها فى كف الصبى، وقال له إمسك هذا التراب اقبض عليه، تحسسه، تذوقه.. هذا هو ربك الوحيد.. إذا أردت أن تصلى للسماء فلا تصلى لها لكى تسكب الفضيلة فى أرواحنا، ولكن قل لها أن تنزل المطر على أرضنا.. هذا هو المهم.. إياك أن تذهب مرة أخرى إلى المعبد إذا أردت أن تسلى نفسك وتتعلم شيئاً فاذهب وتعلم حلب البقر..

المعرفة طريقة المستقبل ..

سوف تكون المعرفة التى تضئ الريف كله من أهم وأعظم مكتسبات ثورة الوعى التى تعمل على إشاعة المعرفة بين كادحيه وأجرائه بادئة بقهر الأمية البغيضة فى صفوفهم.. هذه الأمية التى كانت من أبرز النقط فى جدول أعمال ثورة أكتوبر الاشتراكية فى روسيا حتى قال قائدها لينين.. دون محو شامل للأمية، دون تعليم كاف، دون تعليم الناس استعمال الكتب لن نبلغ هدفنا مطلقا.. وسيتم محو هذه الأمية فى ريفنا وفق أبجدية جديدة تمتزج فيها هجائية الحروف بهجائية التجربة بهجائية الفكر الاشتراكى، حيث يقوم الدعاة الثوريون الصبورين جداً الذين يلازمون أجراء الريف وكادحيه فى قراهم وفى مناطق عملهم فى برارى الدلتا وفى الصحارى وعلى الترع والمصارف والجسور بتلقينهم مبادئ فك الخط بكلمات ليست هى الكلمات التقليدية المألوفة لدى المبتدئين فى تعلم القراءة والكتابة مثل، أكل، شرب، ضرب، ومثل، أسد، جمل، فيل، ولكن كلمات ذات معانى وطنية واشتراكية مثل، الوطن، الشعب، الاشتراكية، الحرية، السلام، الثورة، الكفاح، الاستغلال، الإقطاع، الرأسمالية، الاستعمار عدو الشعوب.. إلى آخر الكلمات ذات المدلول السياسى والفكرى التى تجذبهم لمعرفة معانيها و عمقها ..

وعندما يمتلك أجراء الريف وكادحيه سر الكلمة المكتوبة، وبالذات الكلمة الهادفة، فسوف تنمو على الفور معرفتهم الحسية والتجريبية الضئيلة جداً التي تقارب إلى حدٍ ما المعرفة الحسية لدى زملائهم عمال الصناعة فى بدء نشأتهم الطبقية

عندما كانوا يحطمون الآلات ظناً منهم أنها مصدر شقائهم واستغلالهم ببشاعة، وليست الرأسمالية صاحبة الآلات والمصانع، وذلك حتى تصبح معرفتهم الحسية الضئيلة، معرفة حسية متنورة لا تعتمد على الحياة المادية البائسة والمختلفة التى كانوا يعيشونها بل تعتمد على حياتهم الجديدة، أى حياتهم المادية والروحية التى ستكون مشرقة ومضيئة لاستخدامهم فى رحابها الكلمة المكتوبة وتداول معانيها، ومن ثم يقبلون على ممارسة العمل السياسى كشكل من أشكال الصراع الطبقى..

وكلما زادت ممارستهم للعمل السياسى والنضالى، كلما زادت فرصة استعمالهم الكتب كتعبير صادق عن تطور معرفتهم الحسية إلى معرفة عقلية ومنطقية ترشدهم إلى مصدر همومهم وآلامهم فيتعرفون بعمق إلى من هو معهم بقلبه فقط، ومن هو معهم بقلبه وسيفه، ومن هو عليهم بقلبه فقط، ومن هو عليهم بقلبه وسيفه..

وهذا يعنى أن المعرفة تتطور بينهم إلى درجة تحديد مفهومهم الخاص عن المجتمع المصرى بطبقاته وتناقضاته ومن ثم فإن المعرفة فى كمالها وتطورها تصبح أداتهم فى البحث عن المستقبل، وذلك بتبديل واقعهم المتخلف بواقع مشرق وسعيد، هذا الواقع الذى لا يتم أى كفاح من أجله إلا فى ضوء المعرفة لأنه لا يوجد عمل ثورى بغير نظرية ثورية.

وتطور المعرفة لدى أجراء الريف وكادحيه على هذا النحو، ربما يبدو فى نظر البعض أنه أمر غير قابل للتحقيق إلا بعد عمر طويل جداً، وأن أى تفكير فى هذا الموضوع هو مجرد سرحة من سرحات الخيال، لأن عمال الصناعة فى مصر لم يرق مفهومهم الاجتماعى إلى هذا المستوى رغم تنورهم الملحوظ عن أجراء الريف. ورغم اشتغالهم بالنضال النقابى والسياسى منذ نهاية القرن التاسع عشر.. كما أن فئات المهنيين والمتعلمين ليس لديهم حتى الآن أى مفهوم اجتماعى متقدم غير مفهوم التطلعات الطبقية والوظيفية، أى مفهوم الدرجات المالية، والإفلات من الرسوب الوظيفى، والقفز من الحكومة إلى

الشركات، ومن شركة إلى أخرى وراء الدرجات العليا والوظيفة المربحة، وفقاً لفلسفة.. مشى حالك.. وهذا الكلام صحيح ولكن صحته لا تمثل استحالة تطور المعرفة لدى أجراء الريف وكادحيه فى هذا الظرف الثورى، حيث أن هذه الاستحالة تعنى بالدرجة الأولى استحالة تطور الثورة المصرية نحو غاياتها فى التحرر والاشتراكية، يؤيد ذلك كلام لينين السابق الذى ربط فيه ربطاً محكماً هدف الثورة الروسية العظيمة بمسألة محو الأمية وتعليم الجماهير الكادحة فى الريف والمدينة، وبمسألة استعمال الناس للكتب.. وعليه أيضاً فإن تطور الثورة المصرية نحو غاياتها مرهون بنمو معرفة أجراء الريف وكادحيه بالذات لا لأنهم يمثلون الأغلبية السكانية فى مصر، ولكن لأنهم يمثلون هم وأخوتهم عمال المدينة القوة الرئيسية والأساسية للثورة المصرية عموماً، فضلاً عن أنهم يمثلون أيضاً المصدر الرئيسى لتغذية العمل الوطنى فى جملته بالدم الجديد، بمعنى أن الصناعات الجديدة وكذلك القوات المسلحة تعتمد على هذا المصدر فى تغذيتها بالقوى البشرية اللازمة.. ولذا فإن المعرفة تعتبر ضرورة عاجلة للنهوض الثورى بالحياة الريفية، حيث تتم هزيمة الأمية والجهل والخرافة وكذلك الغربة فى حياة أجراء الريف وكادحيه بفضل هذه المعرفة التى ستفرض نفسها على الجانب غير المضىء من الحياة المصرية خلال تصاعد النضال الشعبى.. مع العلم أن الريف المصرى قد شهد من قبل.. كيف فرضت المعرفة نفسها فى عدد محدود من القرى، مثل دقهله، والسرو، وميت سلسيل، وميت القرشي، وكمشيش، وساحل سليم وغيرها، من خلال النشاط النضالى المحدود للتنظيمات الشيوعية السابقة فى الريف المصرى، هذا النشاط النضالى الذى قد طور بسرعة معرفة عمال الزراعة والتراحيل فى هذه القرى القليلة لدرجة أن كثيرًا منهم قد تخطى مرحلة الأمية والجهل، ومرحلة الغربة وعدم الانتماء للحياة المصرية والمجتمع المصرى، وأصبح من خير دعاة الفكر الاشتراكى ومن خير المكافحين الثوريين فى الريف رغم ظروف النضال السرى ومخاطره..

على مشارف المستقبل ..

تبدأ فعالية المعرفة الجديدة فى الريف بموجة حارة جداً من المراهقة التى تغطى كل تصرفات أجراء الريف وكادحيه فى العمل الوطنى عموماً.. وهذه الموجة من المراهقة هى جسر الوصول الطبيعى إلى مرحلة الشباب والنضوج بالنسبة للفرد والجماعة على السواء.. وعليه فلا يوجد الشباب النشيط والواعي بدونها كاستجابة عاجلة وملحة للتغيرات المادية والروحية فى داخل الفرد والجماعة، حيث يتم بفضل هذه التغييرات الداخلية تفجير إعصار من الحماس المدمر لكافة الحواجز والمغاليق بهدف الوصول إلى قلب الحياة الجديدة الخاصة بالفرد أو الجماعة..

ولذلك فإن المراهقة التى ستصيب أجراء الريف وكادحيه فور صحوتهم من غيبوبة الوعى لا تعتبر رد فعل طبيعى لتراكم الظلم الاجتماعى الواقع عليهم طوال قرون من الزمان من قبل الإقطاع ورأس المال بقدر ما تعتبر تثبيتاً لوجودهم الاجتماعى الجديد فى مواجهة كل الوجود الرجعى القديم الذى يقاوم دائماً بشراسة أى وجود آخر يزاحمه، وخاصةً إذا كانت المزاحمة لا تستهدف التعايش معه والجوار إلى جانبه بل تستهدف القضاء عليه فى الحياة والمجتمع، أى فى حياة الناس المادية والروحية على السواء..

والمقاومة التى يبديها الوجود الرجعى بشكل ظاهر ومستتر لمواجهة صحوة غرباء الحياة والمجتمع من أجراء الريف وكادحيه تستند بشكل أو بآخر على سلطة أجهزة الدولة حتى فى البلاد ذات الثورات الاجتماعية والتقدمية المماثلة للثورة

المصرية التى لم تقم بهدم أجهزة الدولة القديمة من جذورها وبنائها من جديد طبقاً لمواصفاتها.. ولهذا فإن عناصر هذا الوجود الرجعى الممثلة فى كبار الموظفين من أبناء الشباعى والعائلات الإقطاعية والغنية عموماً تهيمن على قمم الحياة الوظيفية فى أجهزة الدولة كلها كما قد أوضحت من قبل.. وبالتالى فلديها الفرصة كاملة على حماية الوجود الرجعى الذى هو نفسه وجود حياتها فى الحياة والمجتمع، وذلك بكل حيلة وبكل قوة حتى لو أدى ذلك إلى الولوغ فى دم الشعب كما حدث فى أندونسيا عام ١٩٦٦ حيث وقعت مجازر بشعة قُتل فيها قرابة مليونين أغلبهم من أجراء الريف وكادحيه الذين قد هبوا لإثبات وجودهم الاجتماعى مما دفع عناصر الوجود الرجعى المسيطر على المواقع القيادية فى أجهزة الدولة إلى القيام بانقلاب دموى بقيادة سوهارتو الضابط الكبير فى الجيش الأندونيسى.. وكما حدث فى بلادنا بشكل مختلف حيث أوضحت أحداث قرية كمشيش أن الوجود الرجعى ممثلاً فى عائلة الفقى الإقطاعية قتل الفلاحين والعمال الزراعيين واغتال حقهم فى الأرض والحياة بمساندة بعض موظفى الدولة ابتداءً من الخفير وشيخ الخفر فى القرية إلى الموظف الكبير فى المدينة ممن ينتسبون لعائلة الفقى بحكم علاقات القرابة والمصاهرة أو بحكم علاقات الفكر والمصلحة..

وأمام هذه المقاومة الدموية التى تشنها الرجعية تثبيتاً لوجودها، فإن المراهقة الحارة التى ستصاحب العمل النضالى فى الريف ليست شيئاً ضاراً ولن تؤدى إلى إشاعة الفوضى والحماقة والعربدة كما سوف تردد بعض الألسنة بحجة واجب احترام النظام والقانون اللذين لم يحترما قط من قبل أصحاب الوجود الرجعى الذين قد تآمروا على قانون الإصلاح الزراعى بتهريب ملكيات الأرض، وبطرد الفلاحين منها وإغراقهم بالديون بواسطة الكمبيالات البيضاء، والذين مازالوا حتى الآن يقومون بتشغيل عمال الزراعة والتراحيل بأجور قليلة ومعاملتهم

بأساليب السُخرة المقنعة..

كما أن المراهقة تعتبر فى هذه الحالة ضرورة لصد مقاومة الوجود الرجعى بفضل إعصار الحماس الذى تولده لاقتلاع الرواسي الرواسخ من الأفكار والعادات والأخلاق القديمة التى تمثل حصون هذا الوجود الرجعى وقلاعه المنيعة، ولذا فإن أى مساس يصيب هذه الرواسي الرواسخ يترتب عليه تغييراً عميقاً وشاملاً فى جغرافية الحياة السياسية والاجتماعية فى الريف المصرى لصالح الوجود الجديد لأجراء الريف وكادحيه الذى سوف يتسع ويمتد فى كافة النواحى الريفية معلناً السيادة الفعلية لعمال الزراعة والتراحيل وإخوتهم فقراء الريف وكادحيه..

وأهم مظاهر الوجود الجديد ستبدو فى حدوث استقطاب واضح فى قلب الطبقات الفلاحية، فتقف قوى الثورة الشابة ممثلة فى أجراء الريف وكادحيه فى جانب.. وتقف قوى الثورة المضادة ممثلة فى كافة الإقطاعيين وأشباه الإقطاعيين وأتباعهم من شباعى الريف وأغنيائه ورأسماليه فى جانب آخر، بحيث يستطيع أى أجير زراعى بسيط تحديد الوضعية الاجتماعية والثورية لأى شخص أو عائلة فى قريته تحديداً يفوق ألف مرة ومرة التحديد القانونى لتعريف العامل والفلاح فى بلادنا..

ومن البديهى أن هذا التحديد الطبقى سيترتب عليه وجود موقف طبقى محدد لكل من قوى الثورة، وقوى الثورة المضادة، وهذا الموقف لابد أن يكون له حجته وسنده المستمدين من المفهوم الخاص بهذه القوى أو تلك حسب مصالحها وأفكارها وأعرافها المختلفة، ومن هنا فالاستقطاب الطبقى فى الريف يصبح فى هذه الحالة عميقاً وشاملاً لظهور أساسه الفكرى متداولاً على ألسنة الجماهير الريفية التى سوف تقرع الحجة بالحجة، والآية بالآية، والمثل يواجه المثل..

وبفضل حدوث هذا الاستقطاب بشكل واضح وملموس سيبعث من صفوف الجماهير الريفية الأجيرة والكادحة من جديد.. الفلاح المصرى الفصيح.. باعتباره مناضلاً ريفياً جديداً لا باعتباره كثير التحدث والكلام.. لابتلاعه أم الكلام.. كما يقول المثل الشعبى.. ولذلك فإن هذا الفلاح الفصيح ستكون له دراية شاملة وعميقة بنفسية الجماهير الريفية إلى حد أنها ستفوق بكثير دراية العلماء والفلاسفة، وهذه الدراية ذات الطبيعة النضالية يتولد منها موهبته العبقرية فى إشاعة المفاهيم الاشتراكية وجمهرتها بين أخوته أجراء الريف وكادحيه بفصاحته الغيطانى التى سوف تمزج الاشتراكية بالطابع الفلاحى المصرى بهدف شن حرب المفاهيم فى ريفنا وقرانا.. استعداداً للوصول إلى محطة يطلق عليها مشارف المستقبل..

حرب المفاهيم ..

وحرب المفاهيم فى ريفنا وقرانا تؤشر على زوال القرية لا من حياة أجراء الريف وكادحيه فقط بل من أدمغتهم أيضاً، وبالتالى تعاظم وجودهم الاجتماعى وقدرته على التصدى للوجود الرجعى وهزيمة أقوى مفاهيمه وبالذات المفهوم القديم لملكية الأرض الذى قد زلزلته قوانين الإصلاح الزراعى فى بلادنا، ومع هذا فما زال يحظى من قبل الشباعى فى الريف بقدسية تشبه قدسية الآلهة نتيجة لسيطرة هذا المفهوم طويلاً وبشكل خرافى على الناس، ولذلك فإن هزيمته تعنى بالدرجة الأولى دحر الإستغلال الريفى بكل أشكاله وصوره من أرضية الحلال إلى أرضية الحرام البغيض، وذلك طبعاً فى عقول أجراء الريف وكادحيه الذين سوف ينهضون فوراً لصنع عالمهم الروحى من جديد وفقاً للمفاهيم الجديدة المنتصرة التى ستتمثل فى ترديد آية.. ليس للإنسان إلا ما سعى..

والعالم الروحى الجديد لأجراء الريف وكادحيه هو بمثابة أداة تفجير ثوريتهم الكامنة التى تأخذ فى هذه الحالة صفة الدوام والاستمرار من خلال وحدتهم وتنظيمهم على أساس التزامهم الواعى بالواجب الاجتماعى كمسئولية أخلاقية تجاه المجتمع المصرى وكل أجرائه وكادحيه.. ومن ثم تتجسد وحدتهم التى ستكون عملاقة فى تنظيمات نقابية وتعاونية وفى تنظيمات سياسية عقائدية وثورية، وذات عضوية ليست دفترية ومظهرية بل عضوية كفاحية تقريرية وملتزمة كما قلت بالواجب الاجتماعى الذى ليس إلزاماً بل ضرورة وحاجة واقتناع عميق ومعنى

للحياة، على حد تعبير ديرزنيسكى..

والعضوية النقابية والتعاونية والسياسية على هذا النحو الديمقراطى والثورى، ليست إلا عبوة محشوة بالسُخط الاجتماعى والتوجيه العقائدى لاستعمالها إلى أقصى حد فى تصفية كل مواقع الإستغلال فى الريف، هذه المواقع التى ستكون وقتها مفضوحة وعارية من أى مهابة بعد هزيمة المفهوم القديم للملكية الأرض باعتباره أبو المفاهيم الداعية إلى إستغلال الإنسان لأخيه الإنسان، على أرض الريف المصرى عموما..

وسيكون الريع الزراعى بكل أشكاله وصوره من أهم المواقع استهدافاً لهذه العبوات الناسفة اجتماعياً وسياسياً حتى يتحقق شعار.. الأرض ملك لمن يفلحها.. وبذلك تقضى على أى إزدواج فى دخول الشباعى والأغنياء، أى فى دخولهم من وظائفهم ومهنهم وتجارتهم، ودخولهم من مجرد ملكيتهم للأرض الزراعية التى لا يفلحونها وذلك على شكل ريع عينى أو نقدى، هذا الريع الذى يعد أبسط مظهر من مظاهر الإستغلال الإقطاعى والطفيلى فى الريف كما أن سوق العمالة الريفى سيكون مستهدفاً لنفس هذه العبوات بقصد تخليصه نهائياً والى الأبد من العلاقات الإقطاعية، ومن الإستغلال الطفيلى، وذلك عن طريق القضاء على مقاولى الأنفار الذين سقطت عنهم ضمن كل الشباعى فى الريف حصانة المال والجاه والنفوذ والعائلة، وبالتالى سقطت عنهم المهابة واحترام العادة ولم يعد الوحد منهم فى نظر أبسط الناس، طيباً، ولا أصيلاً، ولا شهماً، ولا كريماً، بل لئيماً ومستغلاً، وظالماً.. ولابد أن يعرف جيداً أن سوق العمالة الريفى لن يصيبه أى فراغ من جراء القضاء على مقاولى الأنفار حتى لا يلجأ أفندية الأجهزة الحكومية من محترفى التجارب والمشاريع الانتهازية لسده بقصد إشباع تطلعاتهم الطبقية وملأ كروشهم بالمال

الحرام المنهوب من كد وعرق عمال الزراعة والتراحيل باسم العمولة والمصاريف الإدارية التى يتم الحصول عليها بالتحايل الإدارى والفهلوة.. وهذا راجع إلى أن الفراغ الذى سوف يحدث فى سوق العمالة الريفى بعد تصفية مقاولى الأنفار سيُملأ على الفور بالخامات القيادية النابعة من قلب أجراء الريف، هذه الخامات التى ستلتزم فى عملها بالواجب الاجتماعى نتيجة لتشربها الفكر الاشتراكى بعد تعاظم حسها الطبقى الذى لم يصلها بالمشاهدة أو بقراءة الكتب والتقارير ولكن بالتذوق المتواصل لعذاب العمل بالفأس والمقطف وبالتمرغ فى أوحاله على جسور الترع والمصارف والسدود..

ومن ثم فإن سوق العمالة فى الريف سيعاد تنظيمه وتخطيطه تمهيداً لتصفيته بفضل « الهندسة الغيطانى » لدى الفلاح الثورى الفصيح الذى انتصر فى حرب المفاهيم بفصاحته الغيطاية ، والذى لابد أن ينتصر فى أى معركة من معارك ثورة الريف المصرى طالما لازمته فصاحته الغيطانية والاشتراكية، ولذا فإن أبرز أشكال الإستغلال الطفيلى فى هذه السوق ستتعرض أولاً للتصفية العاجلة، وخاصة السمسرة التى يحصل عليها فرد أو هيئة مقابل تشغيل عمال الزراعة والتراحيل، وكذلك الإستغلال المكثف من خلال تشغيل الأجراء الزراعيين بالمقطوعية التى تزيد كثيراً عن قدرة الطاقة الجسمانية للعامل، ومن خلال تشغيلهم ساعات عمل طويلة تزيد على اثنى عشر ساعة يومياً مقابل أجر تافه وضئيل.. هذا بجانب تصفية بقايا السُخرة الموجودة فى كل أرجاء هذا السوق الريفى...

وإن مثل هذه التصفية لن تتم بقانون أو بتجربة حكومية مهما كانت نية منفذيها طيبة للغاية، ولكنها سوف تتم فقط بجمهرة الهندسة الغيطانى وسط أجراء الريف منفذيها الوحيدين، كما حدث فى الثورة الصينية التى كان فى مقدورها إصدار قانون

يقضى على مقاولى الأنفار ويعمل على تحرير الأجراء الريفيين من العلاقات الإقطاعية والرأسمالية فى الصين الشعبية، ولكنها لم تفعل شيئاً غير كفالة الحرية لهؤلاء الأجراء لمواجهة مشاكلهم بالطريقة التى يرونها.. وفعلاً فقد تمكنوا بفضل سلطة الديمقراطية الشعبية التى أوجدتها الثورة الصينية لا من القضاء على مقاولى الأنفار فقط بل تمكنوا بجدارة من القضاء نهائياً وإلى الأبد على سوق العمالة الريفى وما به من علاقات إقطاعية وإستغلالية فى كل الصين الشعبية التى لم تعد تشهد أية صورة من صور البطالة الظاهرة أو المستترة وذلك فى الريف والمدينة على السواء..

وعلى هذا فإن بداية تصفية سوق العمالة الريفى من خلال تصفية كافة الأشكال الإستغلالية الصارخة فى قلبه بواسطة الجماهير نفسها، وخاصةً بعد تصفية كل مظاهر الريع، يؤكد تماماً وقوف أجراء الريف وكادحيه بثبات راسخ على مشارف مستقبلهم، حيث تغطيهم علاقات اجتماعية أكثر تقدماً وإنسانية من العلاقات القديمة، فبطالتهم سوف تتناقص كثيراً على مدار السنة، وساعات عملهم لن تزيد على ثمانى ساعات يومياً، والتأمينات الصحية والاجتماعية ستسرى عليهم وكذلك أغلب التشريعات العمالية الاجتماعية..

ولا جدال فى أن العلاقات الاجتماعية الجديدة التى ستسود فى سوق العمالة الريفى ستعمل حتماً على تحسين الحياة المادية لكافة فقراء الريف عامةً ولأجرائه بشكل خاص، مما يقلل تزايد البطالة فى الريف ، وبالتالى إضعاف ظاهرة التراحيل من خلال إنقاص تغذية سوق العمالة الريفى من الدم الجديد الممثل فى أبناء أجراء الريف وكادحيه الذين سوف يتوجه الكثير منهم شطر التلمذة المدرسية والصناعية نتيجة لتحسين أحوال آبائهم مادياً وفكرياً..

المستقبل في اشتراكية الأرض ..

وفقاً لقانون التطور الاجتماعى وأحكامه فلن تقف جماهير أجراء الريف وكادحيه على مشارف مستقبلها طويلاً فى انتظار الإذن لها بالدخول إلى قلب هذا المستقبل، بل سوف تقتحمه عنوة لأنه مصيرها المؤكد وقدرها المحتوم بعد تعاظم ثوريتها إلى حد تفجير اشتراكيتها الكامنة من خلال نمو الروح الجماعية بينها بعد صحوتها من غفوة الزمن ، وخروجها من الغربة السحيقة، حيث تكتسب هذه الجماهير شخصيتها الجماعية عبر معارك صراعها الطبقى ، وتتجلى مظاهرها فى الحب والتآخى إلى أبعد الحدود.. وتتجلى أكثر فأكثر فى تعاظم نضاليتها التى تمثل لها قمة السعادة، كما أجاب ماركس مرة على أسئلة بناته بقوله.. أنه يرى السعادة فى النضال والبؤس، فى الخضوع، وأنه يعتبر التزلف أبشع عيب، ويؤكد لينين هذا المعنى بقوله.. أن العبد الذى يعى عبوديته ويناضل ضدها ثورى.. والعبد الذى لا يعى عبوديته ويعيش عيشة العبد العمياء الخرساء غير الواعية هو مجرد عبد.. أما العبد الذى يسيل لعابه عندما يصف راضياً جمالات حياة العبودية، ويُعجب بالسيد الصالح، فهو عبد حقير ونذل.. وبهذا المعنى العظيم للنضال تبلغ الطبقات الكادحة غاياتها الثورية والطموحة..

وحب النضال على النحو السابق لا يعنى غير الخلاص نهائياً من الخنوع والخضوع الحقير حيث تصبح الشهامة طابعاً سائداً فى حياة أجراء الريف وكادحيه.. ولا يعنى أيضاً غير الحاجة العاجلة لهم فى الوصول إلى المضمون

الاجتماعى لهذا النضال الريفى الذى بدأ فور تفجير الثورية الكامنة لدى هؤلاء الأجراء والكادحين فى الريف، والذى تعاظم إلى حد تفجير الاشتراكية الكامنة لديهم علماً بأن مصر الفرعونية قد شهدت الاشتراكية الإقطاعية من خلال الملكية العامة للأرض لصالح الفرعون وكهان المعابد .. إن هذه الاشتراكية الكامنة تاريخياً فى الريف المصرى الذى قد شهد حدوث تجارب جماعية واشتراكية رائدة فى تنظيم الرى والصرف فى مصر القديمة، والذى تواجدت فيه حياة اجتماعية ومشتركة.. حيث ما زالت بعض العائلات الفلاحية تعيش عيشة جماعية ومشتركة، من حيث المأكل والمشرب، ومن حيث العمل والملكية...

وذلك مثل عامل الرصاص بقرية دلهمو منوفية التى بدأت بأب كادح وأجير يعمل فى وسايا الإقطاعيين ثم أنجب سبعة رجال يعيشون جميعاً من كدهم عيشة جماعية ومشتركة .. حتى أصبحوا أجداداً لعائلة بلغ عددهم أكثر من مائة فرد يقيمون فى مسكن جماعى ومشترك، ويأكلون من طعام جماعى ومشترك.. ومع هذا فقد تحسنت أحوالهم الاقتصادية والاجتماعية حتى أصبحوا يملكون ويزرعون فى قرابة عشرين فداناً، ولديهم ماكينة مياه جماعية خاصة بهم وكل هذا على أساس العمل الجماعى والمشترك.. وعلى أساس الملكية الجماعية والمشتركة..

وربما يرى البعض أن هذا المجتمع الفلاحى الصغير هو مجتمع عائلى صرف.. وهذا صحيح إذا نظرنا إليه فى بدء نشأته، أما إذا نظرنا إليه فى تطوره فإننا نشاهد أن الجماعية المشتركة قد حلت محل العائلية والأبوية، وخاصةً بعد تعاقب الأجيال المحدودة ووصول زوجات من خارج العائلة دون أن يتعرض لحالات الطلاق أو لحالات الإنعزال.. أى خروجهم مع أزواجهن من هذه العيشة الجماعية والمشتركة، كما يحدث عادةً فى العائلات الفلاحية المصرية، وإن خير دليل على سيادة الجماعية

المشتركة فى قلب هذا المجتمع الصغير يتمثل فى أمران.. أولهما.. استمرار وجود الجماعية فى العمل والملكية بحيث لا يوجد فرد بالعائلة لا يساهم فى العمل الجماعى المشترك أو يستولى وحده على الملكية.. وثانيهما.. التحسن المتواصل فى الوضع الاقتصادى للعائلة كتعبير عن الجدية والاخلاص فى العمل الذى يمارسه الجميع.. ولابد أن يُفهم أن الاشتراكية الكامنة ليست ظاهرة خاصة بالريف المصرى وحده بل هى ظاهرة قد تواجدت فى أغلب أرياف العالم التى توافرت فيها سيادة الملكية الشائعة والمشتركة للأرض مما أدى إلى قيام الإدارة الجماعية للقرية المعروفة تاريخياً بالديمقراطية القروية أو الأبوية التى تكاد تكون مرحلة عامة فى التطور الاجتماعى فى الريف وعلى هذا الأساس ظهرت فكرة اشتراكية الفلاحين البعيدة عن الصناعة وعمالها، وذلك بتأميم الأرض وفلاحتها جماعياً واشتراكياً..

والتصور المنتظر لتصاعد النضال الفلاحى حتى يصل إلى تفجير الاشتراكية الكامنة لدى أجراء الريف وكادحيه يبدو فى رفع عريضة مطالبهم الحاسمة التى تحدد المطالبة الصريحة بوجود اشتراكية الأرض.. هذه الاشتراكية التى لم تُطرح فى الحياة المصرية تقريباً حتى الآن، مع العلم أنها قد طُرحت فى القرن التاسع عشر بفضل النضال الاشتراكى والفكر الاشتراكى، حيث ظهرت عدة كتب بعنوان تأميم الأرض، وتدعو إلى تأميم الأرض، وظهرت تنظيمات سياسية تتسمى بجمعيات تأميم الأرض، وتكافح لتأميم الأرض، مثل جمعية تأميم الأرض، وعصبة تأميم الأرض الأيرلندية فى إنجلترا.. وجماعة الأرض والحرية فى روسيا القيصرية.. كما تمت مناقشات وصدرت قرارات بتأميم الأرض وجعلها ملكية عامة مثلما كانت في العهد الفرعوني، وذلك من قبل الدولية العمالية الأولى، التى كونت بجهود ماركس وانجلز، وذلك فى مؤتمراتها فى لوزان عام ١٨٦٧ وفى

بروكسل عام ١٨٦٨ وفى بازل عام ١٨٦٩.. وحتى بعض رجال الدين المسيحى وقفوا بجانب الملكية المشتركة للأرض مثل القس ستيوارت هيدلام أحد كبار الكنيسة فى إنجلترا، ولم يقتصر طرح اشتراكية الأرض فى أوربا بل طرحت أيضاً فى أمريكا بكتابات الصحفى الأمريكى هنرى جورج عام ١٨٧٩ التى قال فيها.. أن الله منح الأرض للناس فى حيازتهم المشتركة، فلينتزعها الناس عن أولئك الذين اغتصبوا ملكيتها ظلماً.. وإذا أمعنا النظر فى التراث الإسلامى فسنجد أن اشتراكية الأرض قد طرحت من خلال الحديث النبوى القائل.. الناس شركاء فى ثلاث، الماء، والكلأ، والنار..

ورغم التأخير الشديد فى طرح مطلب اشتراكية الأرض فى مصر فسيلقى استجابة جماهيرية واسعة لها، لأنها تتويج لثورة الريف وثورية كادحيه، بل لأنها تعبر عن ضرورة، وبالذات الأرض الجديدة التى يجب أن تصبح على الفور ملكية عامة بحيث لا تخضع أبداً للملكية الفردية بحجة أن الميثاق أكد على وجود الملكية الفردية، وبحجة أن الميثاق نص أيضاً على أن ملايين الفلاحين يتطلعون إلى ملكية الأرض، وبحجة حل مشاكل عمال الزراعة والتراحيل بتوزيع الأرض الجديدة عليهم، وبحجة ضمان انتاجية عالية للأرض الجديدة عن طريق تأجيرها أو توزيعها شرائح كبيرة تصل إلى أربعين فداناً على الفلاحين الميسورين بدلاً من تفتيتها على المعدمين على شكل شظايا صغيرة من الفدادين والقراريط.. وأصحاب هذه الحجج كلهم شاءوا أو لم يشاءوا هم محامو الرأسمالية الزراعية وممثلوها الشرعيين الذين يحاولون بكل جهودهم تغطية الملكية الفردية للأرض بالقدسية المطلقة بدعوى الحفاظ على الميراث احتراماً للدين وتعاليمه، علماً بأن ألمانيا الغربية المسيحية جداً والتى تحكمها الرأسمالية الاحتكارية ألغت حق الميراث فى الأرض الزراعية حتى لا

تتعثر ملكيتها خوفاً من تدهور الانتاج الزراعى.. وعلماً بأن الميثاق الوطنى ليس نظرية أبدية بل هو فقط دليل عمل مرحلى ينتهى الاسترشاد به فى نضالنا بحلول عام ١٩٧٠ حيث يمضى إلى مستقره الأبدى فى متحف التراث ومكتباته، فضلاً عن أن الأراضى الزراعية فى جملتها هى نتاج العمل الإنسانى طوال آلاف السنين ولهذا فمن العبث أن يدعى فرد أو أفراد بأنهم الورثة الشرعيين للجهد الإنسانى عبر التاريخ الطويل.. وحتى الأراضى الجديدة فى مصر التى تبلغ مساحتها قرابة ٧٥٠ ألف فدان فقد تم استصلاحها من مال الشعب المصرى، وجهد الشعب المصرى، ومن العدل أن تؤول إلى هذا الشعب على شكل ملكية عامة بغض النظر عن الدفاعات المضللة التى يسوقها محامو الرأسمالية وعملائها للإبقاء على الأمور التالية:

أولاً.. حماية وجود بقايا العلاقات الإقطاعية فى قلب الريف، وفى مقدمتها ريع الأرض بكل أشكاله وصوره رغم مخالفة ذلك للدين الإسلامى الذى يحرم تحريماً قاطعاً الريع وإيجار الأرض، فقد ذكر ابن القيم فى تهذيبه لسنن أبى داوود.. عن جابر بن عبد الله رضى الله عنهما أن رسول الله صلى عليه وسلم قال..

.. من كانت له أرض فليزرعها، فإن لم يستطع أن يزرعها وعجز عنها فليمنحها أخاه المسلم ولا يؤجره إياها.. وتتأكد نفس المعنى فى حديث آخر عن جابر رضى الله عنه قال رسول الله ﷺ..

.. من كان له أرض فليزرعها، فإن لم يستطع أن يزرعها، وعجز عنها فليمنحها أخاه المسلم، ولا يؤجره إياها.. أورده ابن القيم أيضاً في تهذيبه لسنن أبى داوود..

ويزداد هذا المعنى تأكيداً فى حديث ثالث عن سليمان بن يسار، أن رافع بن خديج قال.. كنا نخابر على عهد رسول الله ﷺ، فذكر أن بعض عمومته أتاه فقال.. نهى رسول الله ﷺعن أمر كان لنا نافعاً - وطواعية الله ورسوله أنفع لنا وأنفع -

قلنا وماذاك؟ قال، قال رسول الله ﷺ..

.. من كان له أرض فليزرعها، أو ليزرعها أخاه، ولا يكاريها بثلث ولا ربع ولا بطعام مسمى.. رواه أبو داوود، وأخرجه مسلم والنائى وابن ماجه..

وجاء الأوزاعى يعمق نفس المعنى بقوله.. كان عطاء. ومكحول. ومجاهد. والحسن البصرى يقولون لا تصلح الأرض البيضاء بالدراهم ولا بالدنانير ولا معاملة، إلا أن يوزع الرجل أرضه أو يمنحها..

ولا يكتفى الإسلام بكل هذا بل يكون واضحاً جداً وصريحاً جداً فى تحريمه لكافة أشكال ريع الأرض بالحديث الذى رواه أبو داوود عن زيد ابن ثابت قال..

.. نهى رسول الله ﷺ عن المخابرة، قلت وما المخابرة؟ أن تأخذ الأرض بنصف أو ثلث أو ربع..

بالإضافة إلى قول الله سبحانه وتعالى في سوة الرحمن.. والأرض وضعها للأنام.. صدق الله العظيم..

والقصد من الحفاظ على ريع الأرض بالذات يتجلى فى أنه المانع الشديد فى عدم تحقيق شعار، الأرض ملك لمن يفلحها حتى الآن، حيث أنه يجمع كل الشباعى والأغنياء وحتى المبسوطين ، وأنصاف الأغنياء من أصحاب المصالحة فى الريف والمدينة فى الحياة والمجتمع فى جبهة معادية لأى تقدم بسيط فى حياة أجراء الريف وكادحيه..

ثانياً.. تفشى التطلعات الطبقية فى كل الريف حتى بين أجرائه وكادحيه، لكى تظل هذه التطلعات بمثابة الفكرية السائدة فى الحياة الريفية على الدوام، مع الإغفال المتعمد لحقيقة مساحة الأرض الجديدة التى لا تشبع أبداً أبداً الملايين العديدة من

أجراء الريف وكادحيه الذين يتطلعون إلى ملكية الأرض الزراعية دون أن يتم ذلك أبداً إلا بشكل تعاونى أو جماعى، وذلك بسبب الضآلة الشديدة لمساحة الأرض الجديدة إذا ما قورنت بعدد الملايين من المعدمين فى الريف..

ثالثاً.. إشاعة الوفاق الطبقى كذلك فى الريف تجنباً لاحتدام الصراع الطبقى فى قراه وكفوره بترقيع الثوب الاجتماعى لفقراء الفلاحين وأجرائه من خلال الترضية الاجتماعية لقلة قليلة منهم، حيث يتم ذلك ببعثرة بعض الأرض الجديدة المستصلحة عليهم على شكل قطع صغيرة من الفدادين.. ومن خلال الصعيد الاجتماعى لقلة قليلة أيضاً من عمال الزراعة والتراحيل بنقلهم من طبقة الأجراء إلى طبقة الملاك عن طريق توزيع بعض فدادين الأرض الجديدة عليهم..

رابعاً.. تضخم طبقة رأسمالية الريف بحشوها أكثر فأكثر بالوافدين الجدد من المعدمين فى الريف مما يجعلها غير قادرة على احتواء الحياة الاقتصادية والسياسية فى الريف..

خامساً.. رفض التحول الاشتراكى فى الريف بالعمل على تطوير الزراعة رأسمالياً وبالمطالبة بتوزيع الأرض الجديدة على الفلاحين الأغنياء فقط الذين يعتمدون على العمل المأجور فى زراعتها..

ومما سبق من حجج ومن أمور تعبر عن مصالح الشباعى فى الريف يتضح أن الحياة المصرية لم تشهد حتى الآن أى حل متقدم لمشكلة الأرض الزراعية فى مصر بحيث يتوافق مع مصالح الشعب المصرى الذى اختار التحول الاشتراكى عن قناعة وعن إيمان وذلك من حيث القضاء على كل مظاهر بقايا العلاقات الإقطاعية.. ومن حيث القضاء أيضاً على كل مظاهر الفقر والتخلف والبطالة فى الريف التى تتجسد أساساً فى ظاهرة عمال التراحيل.. ومن حيث تطوير الزراعة

المصرية تطويراً يجعلها تساهم بشكل مجزى وفعال فى زيادة الدخل القومى والثروة القومية عموماً..

ومن ثم فإن ضرورة اشتراكية الأرض تفرض نفسها فرضاً على الريف المصرى بفعل كفاح أجراء الريف وكادحيه المزودين بسلطة الديمقراطية الشعبية، حيث تزدهر على الفور المزارع الاشتراكية والتعاونية التى سوف تحقق حاجات الشعب وكادحيه ممثلة فى تحقيق المنجزات الآتية..

١. قيام الزراعة المصرية المصنعة علماً وتخطيطاً، بالميكنة العالية للزراعة، وبالاستخدام الواسع للكيمياء الحديثة بهدف الوصول إلى أقصى كثافة ممكنة للزراعة، وإلى أقصى زيادة ممكنة فى عدد الغلات والمحاصيل، وإلى أقصى اتساع فى تربية الماشية والدواجن..

٢. على أساس قاعدة الزراعة المصنعة فى كل مزرعة اشتراكية وشبه اشتراكية، ستوجد الورشة الزراعية أو المصنع الزراعى الشامل الذى يضم صناعة حديثة للحفر والردم والتطهيرات بالكراكات والحفارات الميكانيكية وصناعة متقدمة للألبان والدباغة وتعليب اللحوم وحفظ الفواكه والخضروات، وتعطين وغزل التيل والكتان والسيلوز، والأخشاب الصناعية.. وبالتالى ستوجد صناعة قوية للنقل والتخزين لربط المزرعة بالأسواق وموانى التصدير..

٣. ومن المحتم أن الزراعة المصنعة والورشة الزراعية فى المزارع الاشتراكية والتعاونية سوف يمتصان قدراً كبيراً من عمال الزراعة والتراحيل فى أعمال دائمة ومستمرة.. بحيث تتلاشى رويداً رويداً ظاهرة وجود العمال السريحة أى عمال التراحيل..

٤. ومن المحتم كذلك أن الجماعية سوف تسود وترسخ فى المزارع الاشتراكية

التعاونية، وبالذات فى العمل، وفى الملكية، وفى الإدارة، وفى توزيع الارباح..

وتحقيق هذه المنجزات لا يوضح فقط تحقيق مستقبل أجراء الريف وكادحيه الذى سوف يشرق أكثر فأكثر على أرض المزارع الاشتراكية والتعاونية.. ولكن يوضح أيضاً أن الزراعة الاشتراكية فى مصر قد فاقت بكثير الزراعة الرأسمالية ووصلت إلى مستوى متقدم يمكنها من المساهمة الطموحة فى زيادة الدخل القومى.. ويوضح كذلك نمو حالة الرضى الاجتماعى بين الملايين من أجراء الريف وكادحيه الذين يتطلعون تاريخياً لملكية الأرض الزراعية، والذين قد تحقق حلم حياتهم فى ملكيتهم جماعياً وتعاونياً من خلال الملكية العامة لأرض المزارع الاشتراكية والتعاونية..

وإن هذه المنجزات وما تتضمنه من معانى لن يكتب لها الدوام والاستمرار إلا إذا توافرت لها الحراسة الشعبية والجماهيرية الواعية على أرض المزارع الاشتراكية التعاونية باعتبارها أرض المستقبل التى يجب أن يسودها مناخ ديمقراطى خالص من أى غبار للتسلط الإدارى والبوليسى وخلافه وإن أى إغفال لهذه الحراسة الشعبية يجعل البيروقراطية كاستبدادية مقننة تهيمن عليها بجبروتها وتسلطها قاضية على العلاقات الاشتراكية والتعاونية التى ستتواجد فى رحاب هذه المزارع بما تشيعه من بطش إدارى وبوليسى رهيب باسم النظام والقانون..

ولذلك فالحذر كل الحذر من نمو الاستبدادية الإدارية والبوليسية فى قلب هذه المزارع الجديدة حتى لا يحدث انقلاباً معاكساً فى نظرة الجماهير الريفية إليها، حيث ينظرون إليها بعد ذلك نظرتهم إلى الوسايا والأبعديات الإقطاعية القديمة، ومن ثم تتحطم العواطف بين هذه الجماهير، وبين مزارعها الاشتراكية، وعلى مر الأيام تتحطم هذه العواطف تجاه الزراعة الاشتراكية والتعاونية كلها، هذه الزراعة التى

تتغذى بعواطف الفلاحين كما تتغذى بالماء والشمس سواء بسواء، وخاصةً أن الزراعة عملية بيولوجية تحتاج كل نبتة فيها إلى رعاية خاصة مصحوبة بالعطف والحنان..

وعلى هذا فلابد من مواجهة أى اهتزاز يمس هذه العواطف التى يجب أن تتنامى باستمرار لأن مثل هذا الاهتزاز يؤثر تأثيراً ضاراً بمنجزات المزارع الاشتراكية والتعاونية ويفقدها قوة المثل الحى الذى يجب أن تقدمه الملكية الجماعية للأرض الزراعية لكى تشد إليها شيئاً فشيئاً الملكية الخاصة للأرض التى تغطى أغلبية الريف المصرى، وذلك ابتداءً بالتجميع التعاونى والملكية التعاونية البسيطة عن طريق الاقناع الكامل المصحوب بقوة المثل الذى تقدمه المزارع الاشتراكية والتعاونية دائماً وباستمرار فى صيانة الديمقراطية الشعبية المعادية لأى إكراه أو استبداد يعوق الطموح الثورى أو يكبت الرأى الثورى أو يخنق الكلمة الشريفة والثورية، وذلك باعتبار أن هذه الديمقراطية الشعبية هى وسيلة كفاحية سوف تستخدم للقضاء على استغلال الإنسان لأخيه الإنسان، فى المدينة المصرية، وفى الريف المصرى على السواء..

انتهى.....

عطية الصيرفي
العامل بالنقل البرى
بشركة اتوبيس وسط
الدلتا - منطقة المنوفية
ميت غمر فى ٦ ديسمبر ١٩٦٩

انتفاضة قرية مصرية على الإقطاع

القرية : بهوت – مركز – طلخا

الزمان : صيف سنة ١٩٥١ بعد حصاد القمح.

مقدمات الانتفاضة : كان الإقطاع والمتمثل فى عائلة البدراوى عاشور يقوم بالاستيلاء على القمح من الأُجراء ولا يتبقى للفلاح شئ لإطعامه وأسرته فيما يضطره بإطعام أولاده طوال السنة من مخازن البدراوى بطريقة السلف حتى يأتى العام الثانى وهو مدين للباشا بأكثر مما تنتجه أرضه وهكذا كانت تدور الدائرة.

قيام الانتفاضة : فى يوم الجمعة ١١ من شهر يوليه سنة ١٩٥١ بعد صلاة الجمعة تقابل وفد من الفلاحين مع ناظر الباشا ويدعى أبو الصمايم وطالبو منه ترك أردب واحد لكل أسرة عن الفدان الواحد لإطعام الأسرة فرفض وأصر على الاستيلاء على جميع ما فى الأجران ، وتهجم عليهم بالشتائم وقال لهم أنتم رعاه ، وكلاب ..لا يحق لكم أن تطلبوا من سيدكم الباشا أى شئ فى الحياة وحاول الاعتداء عليهم بالضرب فقام هؤلاء الفلاحون بالدفاع عن أنفسهم .. ألقو به فى مصرف القرية فخرج من المصرف وأسرع إلى قصر البدراوى المقيم بالقرية ، واستغاث بالباشا وكان يتواجد بالقصر بالصدفة نجله فؤاد سراج الدين وزير الداخلية حينذاك فاتصلت على الفور بمديرية أمن الغربية بالتليفون وفى لحظة حضر إلى القرية الوار هائلة من قوات الأمن على رأسهم عباس عسكر حكمدار الغربية فى هذا الوقت

وتم القبض على أعداد كبيرة من الأهالى ومنهم : محمد حامد البهونى - طه محمد البسيونى – عبد اللطيف محمد النجار - إبراهيم الدسوقى المشد - وآخرون وتم تعذيبهم فخرجت القرية بالكامل لمحاولة الإفراج عن أبنائها فتصدت لهم قوات الأمن وخطف عبد العزيز البدراوى بندقية من يد أحد الضباط وأطلق النار على الأهالى فلقى مصرعه فى الحال شيخ خفراء القرية عبد المنعم أبو عجمى ، وخرجت أحشاءه أمام الأهالى مما زاد الأمر اشتعالا وهجمت الجموع على القصر ، وأشعلت النار فيه وفى الدوار والمخازن وتم تعزيز القوات بأخرى كثيفة وتم فرض حظر التجول لمدة ٤٥ يومًا من الساعة ٥ مساءً حتى الساعة ٧ صباحا اليوم التالى وتم القبض على مئات من الأهالى وممارسة كل صنوف التعذيب ضد أهالى القرية.

المؤلف في سطور

- من مواليد ميت غمر سنة ١٩٢٦.
- من أب طباخ وأم خياطة ملابس.
- في طفولته اشتغل صبي حداد وصبي نحاس.
- حفظ القرآن وكان ترتيبه الأول في حفظه على مستوى القطر المصري.
- اشتغل عاملاً بالجيش البريطاني وعاملاً بالزراعة.
- ثم اشتغل عامل غزل بمصنع المحلة الكبرى.
- ثم كمساري أتوبيس.
- في عام ١٩٤٥ أصبح ناشط عمالي، ونقابي، وناشط اشتراكي.
- اعتقل في عام ١٩٤٩ بتهمة توزيع منشور عنوانه «الملك فاروق. مجرم يجب أن يقتل».
- بعد الإفراج عنه في عام ١٩٥٠ حظي بمنصب رئيس نقابة عمال الأتوبيس بزفتى وميت غمر.
- شارك في تاسيس اتحاد عمال النقل المشترك، وأصبح عضواً في مجلس إدارة هذا الاتحاد.
- قبض عليه في نهاية عام ١٩٥٣ بتهمة إحياء ذكرى العاملين الشهيدين خميس والبقري.. وبتهمة المشاركة في إضرابات عمال شركة نسيج الشوربجي في

إمبابة.

- أفرج عنه في عام ١٩٥٦ وظل مشردًا بلا عمل حتى قبض عليه في أول يناير ١٩٥٩.
- أفرج عنه في ١٩٦٤.. واشترك في الاجتماع الأول لحل الحزب الشيوعي دون الاجتماع الثاني الذي لم يدع إليه لرفضه فكرة الحل.
- ظل ناشطاً عمالياً ونقابياً واشتراكياً حتى الآن.

obeikan.com

كتب للمؤلف

- دور العمال في المجتمع الاشتراكي والإنتاج.
- عمال التراحيل.
- نقاباتنا في خدمة السلطان.
- اشتراكية أفندينا والنشأة العمالية.
- ظهور الطبقة العاملة بين السخرة ورأس المال الأجنبي.
- عسكرة الحياة العمالية والنقابية.
- من يحكم مصر المحروسة.
- الحريات النقابية والمضمون الاجتماعي.. مخطوط..
- العمال والفلاحون يواجهون الرصاص والمشانق.. نيابة عن الوطنية المصرية.
- الاشتراكية حلم وعلم ومستقبل.
- أيها النمل ادخلوا مساكنكم.
- لمحات من مظاهر حكم العسكر والعسكرة.
- حكم العسكر في مصر.. من الفراعنة حتى حكم مبارك.
- اليسار المصري وأجياله العتيدة.. مضاد لليسار الجديد باعتباره مشروعًا

أمريكيًا صهيونيًا يزحف على مصر المحروسة.

- سيرة عامل مشاغب.. الجزء الأول.
- مقامات عامل مصري.. مخطوط.
- قضايا اشتراكية وأخلاقية. الشيوعية – الاشتراكية المهدرة، والمباعة للشيطان الأمريكي.. مخطوط.

obeikan.com